

تعظيم الخيل والأسلحة

يقول لافيس : « منذ القرن الحادى عشر ، لا نكاد نرى المحاربين يقاتلون ، إلا وهم على صهوات الجياد ، ولذلك أطلق على المقاتل فى العصور الوسطى اسم « الفارس » ؛ فهو فى فرنسا يدعى Chevalier ، وفى جنوبها Caver ، وفى إسبانيا Caballero ، وفى ألمانيا Ritter ؛ وأصبحت كلمة « العسكرى » فى النصوص اللاتينية القديمة Miles مرادفة لكلمة « فارس » .^(١) وكذلك كان الأمر فى اللغة العربية ، إذ يدعى المقاتل فارسا ، نسبة إلى الفرس . ويسجل هذا الأصل المشترك للكلمة فى عدة لغات ، ما يربط بين الفارس والفرس من صلات لا تدعنا نتصور الفارس بلا فرس ، بل ويخيل لنا الحصان قاعدة حية لتمثال الفارس . وإذا كان جمال النحت يتجلى فى أن يصنع الفنان قاعدة التمثال من مادة التمثال نفسها — رخاما كانت أو « برونزا » أو عاجا أو جرانيت — فإن فن الفروسية كذلك يقتضى أن تجمع بين الفرس وفارسه صلة وثيقة ، وأن يكون بينهما حظ مشترك متكافئ من نفس الجمال البدنى الموروث عن أصل عريق ، ونفس الفضائل الأخلاقية كالذكاء والشجاعة والكرم . فما الذى أوحى يا ترى للعرب هذا الفن الذى أبدعوه فى صورة واقية موفقة ،

(١) لافيس ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

ما زالوا يبذلون الجهد لإبقائها وإحيائها ؟ وهل يمكن أن يكون سوى طبيعة
 بيئتهم ، وأسلوبهم في العيش وروحهم الأصلية ؟
 تخيلوا مساحات شاسعة من الرمال ، تنامت فيها العيون والمراعى
 ومضارب الخيام . هناك لا أنهار ولا سفن ، ولا سبيل إلى التواصل السريع
 سوى الحصان . وتخيلوا من ناحية أخرى حياة العرب المضطربة بالأحداث ،
 وقتالهم الذى لا ينقطع بين هجرم ودفاع ، وتنقاهم الفجائى ، ورحيلهم
 المتلاحق لانتجاع الكلاء . فعلى سرعة الطرد أو السلب تتوقف سرعة
 العودة بالصيد أو الغنيمة ، وعلى جلد الفرس يتوقف مدى الغارة ؛ وإن
 براعة الفارس من براعة الفرس ، فالسابق إلى تسديد الضربة القاتلة هو
 السابق أيضاً إلى الفرار من المعركة ، وعلى قدر خفة الجواد يقصر أو يطول
 البعد بين الفارس ومحبوبته . . . بفضل الجواد إذن يستطيع العربى أن
 ينقذ ما يملك ، وأن ينطلق متعقبا عدوه ، وأن يذود عن أهله وعن حرите
 هكذا كان الحصان مصدر منافع ومغانم ، فاستأثر منذ أقدم العهود بحب
 العرب ، لما يؤدى لهم من خدمات جليلة يعجز دون أدائها سواه . ولذلك
 عنوا كل العناية بتربية هذا الحيوان وتهذيبه ، حتى يحصلوا على أقصى
 ما يمكن من مزاياه . وهكذا أصبح أجمل الجياد وأسرعها وأقواها ، موضع
 التهافت ، ومصدر الثروة الطائلة التى تعرد بالمجد على صاحبها المجدود .
 على أن مالك الجواد لم يكن يعتر به لأنه كان مجلبة للآلاء والمنافع
 فحسب ، بل ولأنه كان نعم الرفيق . فالقد كان المقاتل يمضى وحده ،

لا يصحبه إلا جواده ، فيمعن في السير التماسا للمغامرة ، وقد تطول
جولاته خلال مفاوز جزيرة العرب ، حيث تعصف دائما ريح الشحناء ،
ويزجر شيطان الثأر والبغضاء ، وترعد بروق الغدر وتهدر الدماء . . .
فلا يجد الرجل إلا جواده صديقا آمينا . أو ما كانا يتقاسمان صروف
الحياة ؟ أو ما كانا يتعرضان لنفس المخاطر ؟ أو ما كانا يتذوقان نفس
النشوة في غمار المعارك ؟ أو لم تكن النصرة والعزة ثمرة لتعاونهما الوثيق ،
وشجاعتهما المتكافئة ، وجلدهما وذكاهما وبراعتهما ؟ فإذا خرجا لموعده
غرام انطلق الجواد يسابق أشواق سيده ، ومن يدرية ، فلعله واجد هنالك
في انتظاره فرسا جميلة كريمة جديرة به ، قرب خباء تلك الحسناء المشرقة .

مهفهفة بيضاء غير مفاضة تراثها مصقولة كالسجنجل^(١)

وإذا خرجا للمراقبة استطاع الرجل عندما يحن الليل أن يهبط إلى

السهل ، بينما يظل جواده ساهرا يحرس المكان كما يقول لييد :

فعلوت مرتقبا^(٢) على ذى هبوة^(٣) حرج^(٤) إلى أعلامهن^(٥) قتامها^(٦)

(١) معلقة امرئ القيس المهفهفة : اللطيفة الحصر . وغير مفاضة : ضامرة البطن .

تراثها . . . الخ . أى صدرها مشرق متلألئ .

(٢) المكان المرتفع الذى يقوم عليه الرقيب .

(٣) فيرة .

(٤) ضيق جداً .

(٥) الجبال والرايات .

(٦) الفبار « أى راقبت الأعداء من أعلى جبل قريب منهم » .

حتى إذا ألفت يداً في كافر^(١) وأجن عورات الثغور ظلامها
أسهلت^(٢) وانتصبت كجذع منيفة^(٣) جرداء يحصر دونها جرامها^(٤)

وإذا اقتضى اللقاء هجوما ودفاعا فإن الجواد :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٥)

ويقصد شعراء المديح الخليفة أو الأمير الكريم ، التماساً لجائزة أو
هبة ، فيلدورون في أسلوب يتراوح بين الواقع والمجاز حول هذا الإطراء :
علام تلفتين وأنت تحسني وخير الناس كلهم أسامى
متى تأتى الرضاقة تستريحي من الأنساع والدبر الدوامي^(٦)

وهكذا نستطيع أن ندرك في يسر ، كيف نشأ بين الفارس والفرس ،
شعور متبادل من الشكر والاحترام والاعتزاز تلا ما كان يربطهما أولاً

(١) الليل (أى حتى إذا غربت الشمس وأظلم الليل) .

(٢) أسهل : أتى السهل من الأرض .

(٣) العالية .

(٤) جمع « جارم » وهو الذى يقطع حملة .

(٥) أى لما غربت الشمس نزلت إلى مكان سهل وانتصبت الفرس أى رافعة عنقها كجذع
نخلة طويلة يضيّق صدور الذين يريدون قطع حملها لعجزهم عن ارتقاؤها) .

(٥) معلقة امرئ القيس .

(٦) الانساع : جمع نفع وهو سير يشد به الرجل . الدبر : جمع دبرة وهى

قرحة الدابة .

من شعور الحب والزمانة ؛ لقد عرف العربي للدابة فضل وفائها وعظيم جدواها ، كما عرفت الدابة للرجل فضل عنايته بها وعلمه بالفروسية وذبوع صيته .

ولأننا لنجد فضلا عن ذلك في جميع القصائد التقليدية — سواء كان موضوعها المدح أو الفخر أو الحكمة — جزءا مخصصا لوصف الجواد أو الناقة ، قد يكون أجمل أجزاء القصيدة . وعلى هذا فنحن لا نغالى حين نقول إن الفارس العربي وفرسه كانا يتشاطران الحياة ويتلازمان ، مما دعا إلى تعريف كل منهما باسم الآخر : فلقد كان يقال « فرس عمرو » كما كان يقال « فارس السמידع » و « فارس أبجر » أو « فارس بهرام » . وكذلك كان مما يفخر به المرء أن يحوز لقب « فارس الفوارس » أو « فحل الفحول » أو أن يقال عنه : صاحب الخيل ، مثل « طفيل الخيل » أو « فريد الخيل » . . .

لقد تضافرت كل العوامل إذن على أن تنمى لدى عرب الجاهلية حب الخيل واحترامها ، ثم جاء الإسلام فأضاف إلى هذه الحوافز — حوافز الإثراء واللذة ، والفن والفخر — حافزا جديدا . فلقد كان محمد سياسيا بارعا أربيا ، أدرك لزوم الحصان للمسلمين حتى ينشروا الشرع الحنيف على الملأ . وفي ذلك الزمن ، لم يكن المشاة هم سادة المعارك ، ولم يكن البارود قد أحدث دويه ، بل كان الحصان هو الذى يحسم القتال وهو الذى يحقق هجرات الشعوب ؛ لذا قرر الرسول وقف هذا الحيوان

العجيب على نفع المسلمين فقط ، فخلع عليه طابعا مقدسا ، وأحاط مولده بالرمزية والإعجاز ، وأثنى فيه على فضائل خاصة وفوائد جمّة ، وجعله خليفة مصطفىة أعدت للحرب والمجد ، وفرض على المؤمنين واجب تربيته وتدريبه في سبيل الله . وإن في هذه الوصايا الدينية ما يشرح ضروب الحب والعناية التي ما زال العرب حتى اليوم - ولو كانوا من أهل المدن - يحيطون بها خيلهم .